فصلٌ
في ذِكْر إسماعيل عليه السَّلام[١]

إسماعيل عليه السلام اسم أعجمي، وفيه لغتان: إسماعيل باللام، وإسماعين بالنون.

وحكى ابن سعد عن هشام والواقدي: أن اسمه كان اشمويل فأعرب[٢].

وقد أثنى الله سبحانه على إسماعيل فقال: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾﴾ [مريم: ٥٤] قال ابن عباس: كان إذا وعد أنجز وعده، وعد رجلاً أن يلتقيه بمكان فأقام سنة ينتظره ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾ [مريم: ٥٥] وفي مصحف ابن مسعود: وكان يأمر قومه[٣].

ونبَّأه الله في حياة أبيه وكان بكر إبراهيم، ولد ولإبراهيم تسعون سنة في قول السُّدي، وولد إسحاق بعده بثلاثين سنة، وحمله إبراهيم على البُراق مع أمِّه وله سنتان، حكاه ابن سعد عن الواقدي[٤].

وقال وهب: لما توفي إبراهيم قام إسماعيل مقامه، وبعث إلى العماليق وجرهم وقبائل اليمن، وكانوا يعبدون الأوثان، فآمن بعضهم.

وقال ابن سعد: حدَّثنا الواقديّ عن أسامة بن زيد بن أسلم عن أبيه قال: لما بلغ إسماعيل عشرين سنة توفيت هاجر بمكة وهي بنت تسعين سنة فدفنها في الحِجر[٥].

وشكا إلى الله حرَّ مكة فأوحى الله إليه إني أفتح لك باباً في الحِجر تجري عليك منه الروح إلى يوم القيامة فيقال: إنه قريب من هاجر.

وقال عبد الملك ابن هشام في «السيرة»: العرب تقول: هاجر وآجر، فيبدلون

---

(١) انظر قصته في المعارف ٣٤، و«البدء والتاريخ» ٣/ ٦٠، و«عرائس المجالس» ص ١٠٣، و«المنتظم» ١/ ٣٠٤، و«البداية والنهاية» ١/ ٤٤٢.

(٢) «الطبقات الكبرى» ١/ ٤٩.

(٣) ذكره أبو حيان في البحر ٦/ ١٩٩.

(٤) «الطبقات الكبرى» ١/ ٥٠.

(٥) «الطبقات الكبرى» ١/ ٥٢.

الألف من الهاء، كما قالوا: أهْرَاق الماء وأراق الماء[١].

وحكى ابن سعد عن محمد بن علي بن الحسين عليهم السلام: أوَّل من تكلَّم بالعربية إسماعيل، وهو ابن ثلاث عشرة سنة، قيل له: فما كان كلام الناس يومئذ؟ قال: العبراني، وكذا الكلام الذي أنزله الله على أنبيائه إبراهيم وغيره[٢]. وكان كلام الناس السُّرياني والعبراني.

وقال السدي: إنما نطق بلغة جرهم. وقال مقاتل: لما نزلت جرهم تكلَّم كما يتكلَّمون به، واختتن وهو ابن ثلاث عشرة سنة، وختن معه جماعة من أولاد العرب. ووهب له مُضاض بن عمرو الجرهمي سبعة أعنز.

وذكر محمد بن عبدوس الجَهْشَياري في «كتاب الوزراء» عن كعب أنه قال: أوَّل من وضع الكتاب العربي والسُّرياني آدم قبل موته بثلاث مئة سنة، كتبها في الطين. فلما انقضى الطوفان أصاب كلُّ قوم كتابهم، فكان الذي وجد كتاب العربية إسماعيل. قال: وقال ابن عباس: أوَّل من وضع العربية إسماعيل، ثم تكلَّم بها الناس[٣].

ذكر أولاده

ذكر جَدي رحمه الله في «التبصرة» وقال: وولد لإسماعيل اثنا عشر ولداً، ولم يسمِّ منهم أحداً[٤]. وذكر الواقدي فقال: منهم نبت وقيل: نابت وقيذار، وقيل: إن نبت ابن قيذار، وهو أبو العرب كلهم.

وكان لإسماعيل أذبل وأميم وتيم ومسمع ودوما ودوام ومنشا وجداد وقيم ونطور ونافس وميسم، وكل هؤلاء لهم نسل[٥].

وذكر عبد الملك بن هشام في «السيرة» أولاد إسماعيل فقال: نبت أو نابت وقيذر[٦]

---

(١) «السيرة» ١/ ٦.

(٢) «الطبقات الكبرى» ١/ ٥٠.

(٣) انظر القصد والأمم ١٩، والوزراء والكتاب ص١.

(٤) «التبصرة» ١/ ١٢٥.

(٥) انظر طبقات ابن سعد ١/ ٣٤ (الخانجي)، وتاريخ الطبري ١/ ٣١٤.

(٦) في (ب) و(ل): وفضل؟! والمثبت من السيرة.

وماشي وكدما[١] وأذر وطيما[٢] وقنطور[٣] ونبش وقيذما، وأمهم بنت مُضاض بن عمرو الجُرهمي. وفي مضاض لغتان: كسر الميم وضمها، قال: وجرهم من قحطان، وقحطان أبو اليمن كلهم، وإليه تنتهي أنسابها[٤].

وذكر ابن سعد عن هشام بن محمد الكلبي قال: ولد لإسماعيل اثنا عشر ولداً وهم نياوذ وهو نبت وهو نابت وهو أكبر ولده، وقيذر، وأذبل، ومنشى، ومسمع، وهو مشماعة، ودما ـ وهو دوما ـ وبه سميت دومة الجندل، وماشي، وأذر ـ وهو أذور ـ وطيما، ويطور، ونبش، وقيذما، وأمهم في رواية محمد بن إسحاق رعلة بنت مُضاض ابن عمرو الجُرهمي، وفي رواية الكلبي: رعلة بنت يشجب بن يعرب. قال: وقال الكلبي: وكانت لإسماعيل امرأة من العماليق ابنة صدى[٥] قبل الجرهميَّة، وهي التي جاء إبراهيم لزيارة ابنه فجَفَتْه في القول، وأمره إبراهيم بفراقها ففارقها ولم تلد له شيئاً.

وقال ابن سعد بإسناده عن بكر بن سويد عن علي بن رباح اللخمي قال قال رسول الله ﷺ: «كلُّ العرب من ولد إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام»[٦].

فصل في وفاة إسماعيل عليه السلام

قال هشام بن محمد: لما احتضر أوصى إلى أخيه إسحاق، وزوَّج ابنته من العيص ابن إسحاق.

وقال جدي: عاش إسماعيل مئة وسبعاً وثلاثين سنة، ودفن في الحِجر عند أمِّه، فقبره ما بين الميزاب إلى الحِجر[٧].

وقال خالد المخزومي: ولما حفر ابن الزبير أساس الكعبة وجد سفطاً من مرمر

---

(١) في «السيرة»: «دمًا».

(٢) في (ل) و(ب): «طينا»، والمثبت من «السيرة»

(٣) في «السيرة»: «يطور»

(٤) «السيرة» ١/ ٤ـ٥، وزاد فيها: «أذبل، ومبشا، ومسمعا».

(٥) في «الطبقات الكبرى» ١/ ٥١ـ٥٢: صبدى.

(٦) «الطبقات الكبرى» ١/ ٥١.

(٧) «المنتظم» ١/ ٣٠٥، وانظر «أعمار الأعيان» ص ٩٩، والتبصرة ١/ ١٢٥، والطبري ١/ ٣١٤.

أخضر، فسأل العلماء بالأخبار فقالوا: هذا قبر إسماعيل وأمّه، قالوا: والمحدودب مما يلي الركن الشامي فيه قبور العذارى من بنات إسماعيل وكلَّما سوِّي مع أرض المسجد عاد محدوداً كما كان[١].

وذكر محمد بن سعد في «الطبقات» عن إسحاق بن عبد الله بن أبي فروة قال: ما يعلم موضع قبر نبي من الأنبياء إلا ثلاثة: قبر إسماعيل فإنه تحت ميزاب الكعبة بين الركن والمقام، وقبر هود فإنه في حقف من الرمل تحت جبل من جبال اليمن عليه شجرة خضراء تندَى دائماً، وموضعه أشدّ الأرض حرّاً، وقد ذكرناه، وقبر رسول الله ﷺ[٢].

قلت: كذا ذكر ابن سعد ولم يذكر الخليل وهو ثابت أيضاً بالتواتر أكثر من قبر إسماعيل وهود.

فصل في قيذار ونبت، وجرهم وأمر الكعبة

واختلفوا فيهما على قولين: أحدهما: أنَّ نَبْت بن إسماعيل وقيذار أخوه. والثاني: أن قيذار بن إسماعيل ونبت بن قيذار.

ولما ماتا غلبت جُرهم على البيت، وكانت أم نبت جُرهميَّة، وأبوها مُضاض بن عمرو الجرهميّ، وولده الحارث بن مُضاض، تولى البيت والحارث أوَّل مَن وليه من جرهم، وقيل مُضاض، وكان ينزل بقُعَيقعان، وكل من دخل مكة يعشِّره. وملَّكتِ العماليق السَّمَيْدَعَ بن هوبر فنزل أجياد أسفل مكة، فكان كل من خرج منها يعشِّره، وجرت بينهم حروب كثيرة. وإنما سمي قُعَيقِعان لأنه لما خرج الحارث بن مُضاض لحرب العمالقة تقعقعت هناك الدَّرَق والسيوف والرِّماح، وخرج السَّمَيْدَع ملِك العمالقة فنزل بالجياد من الخيل هناك فقيل أجياد، وإلى هلمَّ جرّاً، ثم بعد ذلك اصطلحوا ونحروا الجزر هناك فسمي ذلك الموضع طابخ[٣].

وكانت ولاية جرهم البيت ثلاث مئة سنة وآخر ملوكهم الحارث بن مُضاض الأصغر

---

(١) المنتظم ١/ ٣٠٥.

(٢) «الطبقات الكبرى» ١/ ٥٢، والمنتظم ١/ ٣٠٦.

(٣) في (ب): «كانح».

وهو الحارث بن عمرو بن عوف بن الحارث بن مُضاض الأكبر، وزاد في البيت ورفعه، ثم طغت جرهم وبغت حتى فسق رجلٌ منهم في الكعبة بامرأة، وقد ذكرهما الجوهري فقال: وإساف ونائلة صنمان كانا لقريش وضعهما عمرو بن لُحَيٍّ على الصفا والمروة، فكان يذبح عليهما تُجاه الكعبة، قال الجوهري: وزعم بعضهم أنهما من جرهم، إساف ابن عمرو ونائلة بنت سهل، ففجرا في الكعبة فمسخا حجرين فعبدتهما قريش[١].

وقال ابن الكلبي[٢]: لما طال العهد عليهما عُبِدا، قال: وسلَّط الله على جرهم الرعاف فهلكوا، وبقيت منهم بقيَّة.

وقال ابن إسحاق: ثم غلب بنو إسماعيل ـ لما كثروا وصاروا ذوي قوّة ومنعة ـ على أخوالهم جرهم فأخرجوهم من الحرم، فلحقوا ببلاد جهينة فأتاهم سيلٌ في الليل فاجتاحهم بمكان يُدعَى بإضم وفيهم يقول القائل: [من الطويل]

كأن لم يكن بين الحَجون إلى الصَّفا أنيسٌ ولم يسمر بمكة سامر

من أبيات، قلت: وقد اختلفوا في قائل هذه الأبيات، فقال قوم: هي لمضاض الأكبر، وقال عبد الملك بن هشام: هي لعمرو بن الحارث بن مضاض الأصغر وليست لمضاض الأكبر، وذكرها، وقال بعد البيت الذي قاله[٣]:

كأن لم يكن بين الحَجون إلى الصفا

ولم يتربع واسطاً فجنوبه إلى المنحنى من ذي الأراكة حاضرُ
بلى نحن كنَّا أهلها فأبادنا صُروف الليالي والجدود العواثرُ
وكنا لإسماعيل صهراً وجيرة ولما تَدُرْ فيها علينا الدّوائرُ
وكنا ولاةَ البيت من بعد نابت نطوفُ ببيت الله والأمرُ ظاهرُ
ملكنا فعزَّزنا فأعظم بمُلكِنا فليس لحيٍّ غيرنا ثَمَّ فاخرُ
ألم تنكحوا من خير شخص علمتم فأبناؤه منا ونحن الأصاهرُ

(١) «الصحاح»: (أسف).

(٢) في (ب): «الكعبي».

(٣) الأبيات في «السيرة» ١/ ١١٥. أما البيت الثاني: ولم يتربع واسطاً، فليس في «السيرة»، وإنما هو في «الأغاني» ١٥/ ١٨، والبيت الرابع لم نقف عليه لا في «السيرة» ولا في غيرها.

فإن تَنثنِ الدنيا علينا بحالها فإن لها حالاً وفيها التَّشاجُرُ
فأخرَجَنا منها المليكُ بقدرة كذلك بالأحوال تجري المقادرُ
أقول إذا نام الخليُّ ولم أنم أذا العرشِ لا يبعدْ سهيلٌ وعامرُ
وبُدِّلت منها أوجهاً لا أحبها قبائل منها حميرٌ ويَحابرُ[1]
وصرنا أحاديثاً وكنَّا بغبطة إلى أن أذلَّتنا السنونَ الغوابرُ
فسحّت دموعُ العين تبكي لبلدةٍ بها حرمٌ أَمْنٌ وفيها المشاعرُ

قلت: وقول ابن هشام إنّها ليست لمضاض الأكبر فصحيح، لأنّ الملك الأول يقال له: الحارث بن مُضاض الأكبر في قول ابن إسحاق، والبلاذُري يقول: مضاض، لما نذكر. وهذه الأبيات لآخر ولده هو عمرو بن الحارث بن مضاض الأصغر، وفي أيّامه زال ملك جرهم فرثاهم بها.

وحكى ابن هشام في «السيرة» أيضاً قال: وجدت مكتوبة باليمن في حجر ولا يعرف قائلها، وهي أوّل شعر قيل في العرب.

وقال البلاذُري: نزلت جرهم بمكة وما والاها، وسمَّوها صلاح مثل قطام، ثم إنهم استخفُّوا بحرمة الحرم وأضاعوا حقَّ الكعبة فوقع فيهم طاعون يعرف بداء العدسة، وقويت عليهم خزاعة فأخرجوهم من الحرم، فنزلوا بين مكة والمدينة فهلكوا بذلك الداء[2].

وقال البلاذري[3]: وكان أوَّل ملوك جرهم مِضاض - بكسر الميم - بن عمرو بن سعد بن الرفيت بن هي[4] بن نبت بن جرهم بن قحطان، ملك مئة سنة، ثم ملك بعده ولده عمرو بن مضاض مئة وعشرين سنة، ثم ملك بعده الحارث بن عمرو مئتي سنة، ثم ملك مضاض بن عمرو الأصغر أربعين سنة. وانقضت العرب العاربة من عاد وعبيل وطَسْم وجَدِيس وثمود والعماليق، وانمحت آثارهم وانقطعت أنسابهم، ولم يبق إلا من كان من عدنان وقحطان. ثم صارت ولاية البيت في ولد نزار، وكانت بينهم وبين مضر حروب وبين إياد، فكانت لمضر على إياد فأجلوهم إلى العراق، لما نذكر.

---

(١) في (ب) و(ل): ويخامر، والمثبت من «السيرة» ١/ ١١٥.

(٢) أنساب الأشراف ١/ ٩-١٠.

(٣) القول للمسعودي في مروج الذهب ٣/ ١٠٣.

(٤) في مروج الذهب: بن الرقيب بن هيني.